الطفل والشاحنة

قصة بقلم جليل القيسي

كان اخر كلام سمعته للرجل العجوز الذي ظل يسرد ذكرياته الفارغة ـ اه ، الدنيا سخيفة . وتوقفت فجأة قطرات المطر التي لم تكف عن نطح زجاج نافذة السيارة بتحد مزعج . وحدث بغتة ما يشبه الانفجار ، وتدحرجت السارة ككرة كبيرة . وبعد قليل طرقت سمعي كلمات مبتورة كأنها تنبعث عن جوف عميق . آخ ـ اوف ـ يابا ، واخيرا صوت طفل . وعندما استقرت السيارة ، شقت سمعي اصوات مختلطة ذابلة ، وصرير عجلات السيارة ، واخيرا قطرات المطر . افقت كالمذعور، ووجدت نفسي مكوما على الرجل المذعور وهو بدوره مكوم على رجل اخر . وعندما تفحصتهما وجدتهما ميتين . وفكرت في طريقة لاخرج من السيارة . نهضت بتثاقل ، والقيت نظرة فاحصة حولي ، فوجدت كل شيء في فوضى مخيفة . تفحصت جسمي فاستطعت ان اعرف باللمس ان ثمة جرحا كبيرا في ذراعي اليمنى .

ناضلت لاخرج وبأي ثمن . واستطعت فعلا ان اخرج بجهد عظيم ، كان المطر ما يزال ينهمر بغزارة ، والريح تعوي باستمرار ، ورأسي يطن بألم حاد ، وجسمي يرتعش من البرد ، والهلع . طرق سمعي فجأة ، وعلى نحو اوضح ، صوت طفل . ورحت افكر بمصير المرأة ، والسائق . آه الصغير الذي لم ينقطع عن البكاء طيلة السفرة . واكدت على نفسي مرات عديدة ـ فكر في هدوء .. فكر في هدوء . اشتد الالم في ذراعي جراء البرد الذي راح يلعقه دونما توقف . توقفت ، واقتربت من السيارة ، وجلست القرفصاء حتى استطيع ان ارى بوضوح. ولكن الظلام ! غاصت قدماي في طين كثيف ، ووجدت صعوبة بالغة في انتزاعهما . وحدثت نفسي كالمذعور ـ رباه . رباه . ما هذا !؟ اين انا ؟ صوت طفل ـ صوت طفل . ولغرط ذهولي جلست على الارض،ونسيت نفسي . وعندما شق صوت الطفل سمعي من جديد ، صرخت بجنون. هيفاء . هيفاء . الولد يبكي . هيفاء . هيفاء . وارتخت ذراعي المجروحة من الالم واستقرت برفق على الطين . جفلت كحيوان ذبيح ، ورددت بآلية ـ اه ما هذا ؟ ـ طين ! ـ اه مطر !؟ لماذا مطر ؟ اين انا ؟ اي حلم مزعج . وظل صوت الطفل يطرق سمعي . اقحمت يدي في جيب سترتي واخرجت علبة ثقاب ، واشعلت عودا اطفأت الريح لهيبه القلق . وعبثا رحت اشعل . وخشيت ان تنفد اعواد الثقاب ، لذا اهتديت بصعوبة الى مخزن البنزين . وفتحت الغطاء . ومزقت طرف قميصي ، واشعلت فيه النار بعد ان غمسته في البنزين . غمر ضوء باهت المكان . جلست القرفصاء ، ورأيت وجوه الركاب الخمسة مدماة ، والطفل يبكي . يا للقدر ! يا للصدفة . آه ـ يا لا شيء ! لست ادري . كانت المرأة ميتة . ومددت يدي لاتفحص السائق فوجدته هو الاخر ميتا .

اذا ماتوا ـ كلهم ماتوا ـ كلهم ماتوا . كادت النار تأتي على نهاية قطعة القماش . نزعت قميصي بسرعة ، وارتديت سترتي فقط ،واعدت عملية الحريق من جديد . مددت يدي هذه المرة ، واخرجت الطفل ، فرأيت بقعا متناثرة من الدم على جبينه الصغير . وعندما وقع بصره على الضوء ، بكى بقوة ، وحرك يديه بسرعة . كدت اجن بعد ان تشبعت سترتي بالماء ، وتحول سروالي الى كومة طين . وازداد ألم ذراعي ، ورأسي . رباه ـ وهذا الطفل . احقا انهم ماتوا ؟ لماذا ؟ صرخت كالمأخوذ ـ انهضوا . انهضوا .. اسمعوا . كان صوتي الراعش يضيع في جوف الليل اللانهائي . لم ينقطع الطفل عن البكاء . جلست القرفصاء كرة اخرى . وحركت المرأة وانا اصرخ ـ اسمعي . اختي . اسمعي . اسمعي . وحركتها اخيرا حتى صارت على جنبها . قلت اختي. اختي اسمعي . كانت ميتة . اذن انا وحدي في هذا المكان . طفل . طفل . ماذا يجب ان افعل بهذا الصغير . رباه يجب أن يسكت . لقد تبلل .. المطر .. المطر .. رددت عشرات المرات بآلية ـ الطفل.المطر. الطفل . المطر . انطفأت النار . انحنيت بسرعة ، ونزعت « اليشماغ » من رأس العجوز ، واعدت عملية الحريق من جديد . وفي ضوء النار شاهدت الطفل بوضوح اكثر . كان وجهه مزرقا من البكاء المستمر . جلست على الارض وادخلت الصغير بتؤدة الى داخل السيارة،واخرجت ثدي المرأة وقربت فمه منها . التهم حلمة الثدي بسرعة وراح يمص مطلقا ما يشبه الزئير . ولكنه سرعان ما لفظ حلمة الثدي . وعبثا حاولت ان ادعه يستمر . ماذا يجب ان افعل مع هذا الصغير ؟ اخرجته من السيارة ، وجعلت اردد في محاولة يائسة لاسكانه ـ هش . هش . بابا . بابا . واخيرا وضعت اصبعي في فمه الصغير .

المطر ! المطر ، ما زال ينهمر بغزارة لعينة . فكرت ان اترك المكان واستمر في السير . انتزعت عباءة المرأة ، ولففت بها الصغير ، وانطلقت اشق طريقي بصعوبة بالغة في الطين . واهتديت اخيرا الى الطريق الاسفلتي ، والصغير يبكي دونما توقف . وفكرت اخيرا ان اضع لساني في فمه . ورحت والصغير في قبلة طويلة تحت المطر . وبعد مسيرة ساعتين لاح من الخلف ضوء صغير باهت . واقتربت اخيرا ناقلة بنزين ملأت محركاتها المكان بضجيج قوي . ونزل من السيارة رجل قصير مكتنز ، وساعدني بالصعود الى حوض السيارة . وتحت الضوء الباهت المنساب من سقيفة السيارة ، القيت نظرة طويلة على ذراعي فوجدت جرحا عميقا تخثر على امتداده الدم . وقلبت الطفل في يدي ، رأيت جرحا صغيرا في اسفل عنقه مع القليل من الدم المتخثر . وعندما دققت فيه نظري وجدته ميتا . القيت نظرة سريعة على وجه السائق البرونزي ، وتعجبت لماذا كانت يداه غليظتين بهذا الشكل .

كركوك

جليل القيسي